

رأيت ملاكاً في شهر رمضان

هذه قصة كما يتمنى كثيرون حدوثها معهم . ولكن لا نعلم ، إن كانت في زمن مضى ، في مكان ما ، من هذا العالم ، قد حدثت فعلاً . مع ذلك ، يمكن لنا جميعاً أن نحلم بها ومعها

عزيزي القارئ : " أنا " في هذه القصة هو " أنت "

في زاويتي المفضلة من إحدى الغرف، كنت وحدي جالساً متربعاً على الأرض، سانداً ظهري بوسادتي المفضلة، مستريحاً من عناء يوم طويل من الصيام . ساعة قبل موعد الإفطار، إنه الوقت المناسب ، لأسرح متأملاً في أعماق فكري . ماذا عن الجوع ؟ أليس الجوع بطريقة أو بأخرى رائع أيضاً ، مع علمنا أنه لا يدوم إلا لفترة محدودة فقط ؟ وماذا عن الجوع عند كثير من الناس ، الذين لا يعلمون كيف يشبعونه ؟ كم سأوهب من أيام صومٍ في عمري بعد ؟ وهل يعلم أحدنا كم سيطول عمره ؟ هل أنا على استعداد ، لتلك اللحظة التي يلفظ جسدي فيها روعي ، وهي بمواكبة الملاك عزرائيل ، في طريقها الجديدة الى ولادة جديدة ؟ هل هيأت وأعددت سمعي وبصري وفؤادي لعالم الآخرة ؟ أوليست هذه الأفكار رحمة من الله، الذي من خلال التفكير وحده ، نكون قد وفقنا لعبادته، وهو الغني عن عبادتنا ؟ وكيف سيكون الحال عندما يظهر المخلص الموعود ؟ وهل سأحيا لأشهد ذلك فعلاً ؟

وبينما أنا شارداً الفكر متأملاً ، أبصرت عيناوي ، هيئة شخص نوراني ، مقبلاً نحوي . فركت عيني اللتين لم تألفا رؤية هذا المشهد من قبل . ومع عجز عيني النظر إليه، واقتزابه مني، ووضوحه وسطوح نوره، شعرت بدفء عجيب ملاً كياني . إنه جمال ليس من جمال عالم الدنيا بشيء . ومع أن هيئته كانت كالbشر ، إلا أنه كان يشعّ نوراً من كل مسامات جلده وثوبه .

بصوت رائع خاطبني وقال : يا عبدالله أنا ملك مرسل إليك لأصوّر أفكارك . قل ما ترغب

في رؤيته ، وأنا سأصوّره لك . ورغم أن أفكاري كانت معلقة بعالم الدنيا ، لا أكاد أتمكن الإنفكاك منها ، إلا أنني كنت مفتوناً بهذا العرض .

» أرجوك ارسم لي قلبي » تصوير ثلاثي الأبعاد ظهر أمام عيني ، شعرت كما لو أنني بنفسني داخل المشهد . حرّك الملاك يده ببطء راسماً حروباً . رأيت أفغانستان والعراق . رأيت الناس في أبخازيا ، الذين فقدوا بيوتهم قبل أيام قليلة . رأيت جنوداً ، أطلقوا النار على مدنيين ، القبة الذهبية لمسجد قبة الصخرة ، اختفت في دخان نيران البنادق المتقطع . رأيت أطفالاً أكثر ، يتضورون جوعاً في أفريقيا . مشهد لا يمكن تحمله . رأيت سفناً حربية مدرّعة ضخمة وهي تدخل الخليج الفارسي ، مدجّجة بالأسلحة وعلى أهبة الإستعداد لقذف حممها . وعلى مركز القيادة فيها ، جثث كثيرة . كيفما أدت وجهي ، كنت أرى بشراً يملأ الحزن عيونهم . رأيت دموعاً تُذرف على فقد أخ وأب وابن قبل لحظات . دموع لمقتل ابنة وأخت وأم منذ قليل . في كلّ مكان قتال بعد قتال ، معاناة بعد معاناة ، وحزن بعد حزن . أهكذا يكون قلبي ؟ أي صورة كانت هذه ؟

سألت ملاكي راجياً ، أن يصور لي مصائب الدنيا . وفجأة رأيت نفسي وسط ساحة معركة يبدو أن أمراً رهيباً قد حدث فيها قبل قليل . أجساد مضرّجة بالدماء كانت مطروحة على الأرض ، ورغم ذلك ما زال تشعّ نوراً . هناك رضيع مذبوح بسهم قد احترق عنقه . خيام احترقت وخيول سقطت على الرمال قد احترقت السهام أجسادها . أحدها ما زال واقفاً ، لم يفارق ذلك الجسد ، الذي كان قد حمله طويلاً بقدرة عالية . رأيت معركة على ضفة نهر ، رأيت الجسد المهيب ، مقطوع الرأس . سمعت صوت امرأة مدهشة ، وهي تحاول إدخال العزاء إلى قلوب الأطفال الباقية على قيد الحياة . بدا وكأنّها أرادت أن تشملني بالعزاء أيضاً . كان أمراً لا يُحتمل . ففاضت الدموع على خدي .

سألت الملاك ، أن يصور لي الإمام الحسين وزينب "عليهما السلام" والسلام على كلّ من دمعت عيناه لأجلهما . كانت الصورة الجديدة ، مفعمة بأنوار بهرت عيني ، فأجبرتني على إغماضهما . هناك وقفت امرأة نورانية بباب بيتها من الداخل تدافع عنه . في الخلف رجل نوراني أيضاً لم يؤذن له بالتدخل . كانت قبضته مشدودة وكان سيفه جاهزاً . بإمكانه أن

يندفع من داخل البيت ، منقضاً على المهاجمين لردعهم . فإنه لم يكن بإمكان أحد ، أن يقف بوجهه ويقاوم سيفه ذوالفقار . ولكن لا يمكنه فعل ذلك . كانت حماية الإسلام عنده أهم من نفسه، من بيته، من حياته، ومن حياة سيّدة نساء العالمين . اقتحمت البوابة، أشعلت النار. سقطت المرأة على الأرض، مات جنينها الذي تحت قلبها . في الخلف، كاد قلب الرجل أن يقفز من مكانه، لكن جُلّ ما فعله، أن سارع ألى نجدة امرأته ، التي لم يبق لها من العمر ما تحمله إلا قليلاً . أحضر الكتاب الذي خطّه فقط لأجلها، وقرأ منه؛ أصوات الرحمة ، أصوات الحب، في حالة كانت فيها الدموع بعد الدموع تنهمر من غير انقطاع

لم أعد أتحمّل ذلك فسألت الملاك، أن يصور لي الإمام علي وفاطمة، على أمل، أن أراهم في لحظات هائلة سعيدة . ومع ذلك، ظهر رجل علا نوره كلّ نور شاهده من قبل، رغم أن نور المشهد السابق كان قد أغشى بصري، إلاّ أنه لم يكن ساطعاً بهذه القوة. كان الرجل واقفاً، وسط أناس كانوا يتضورون جوعاً، في وادٍ من الصحراء، مطرودين من مدينة بين تلالها حجر أسود . لقد تحمّل هؤلاء الناس الكثير من المعاناة . الرجل صاحب الأنوار الباهرة ممسك بامرأة بين ذراعيه، أم الرحمة ، أم المؤمنين جميعاً، لقد لفظت أنفاسها الأخيرة . دموع الحب تساقطت على الأرض من وجه هذا النور، الحاضن بين ذراعيه، ذلك الجسد . ومع كلّ دمعة تلامس الرمال كانت تحرق ثقباً ينبعث منه نور. لم أجرؤ على النطق ولا على التفكير . هل كان الواقف هو نبيّ الأنبياء، رسول القادر، حبيب الخالق ، ممسك بذراعيه، الشريفة المباركة خديجة ؟

ماذا فعل الملاك لي: كلّمنا شئت أن أرى مقدّساً ، رأيت شيئاً أعظم . رجوت الملاك أن يصور لي خاتم الأنبياء وخديجة الكبرى. الآن رأيت وريدي وهو يضخّ الدّم إلى عروقي باستمرار، إنه إيقاع الحياة. لم أفهم ، واستفسرت عن ذلك، لا يمكن أن يكون هو المصطفى ، الأحمد، وزوجته الحبيبة خديجة . فجاءني الجواب، إنّ الروح التي وحدت والديّ الصدق،

محبوبة عن بصري، ومؤهلاتي ليست كافية ، وليس باستطاعة أحد مُعَاينة ذاك الجمال مباشرة. ولكنني أستطيع إدراك ، كم هو قريب منّي ، أقرب إليّ من حبل وريدي

ثمّ سألت الملاك تصوير الخلاص. إذا بي أرى رجلاً يشعّ وجهه نوراً ، مشابهاً لما شاهدته من الإمام الحسين والإمام عليّ والنبي . كان واقفاً مباشرة عند الكعبة الشريفة، وقد بايعه المئات من الحاضرين، وكان بجانب الحجر الأسود، وقد تحطّم إلى قطع متناثرة، ثمّ عاد أمام عينيّ والتحم قطعة واحدة يشعّ نوراً. وفجأة رأيت نفسي أنّي في بيتي وقد لجأ إليه، فقراء محرومون، فيهم جرحى . وضعت كلّ الغرف بتصرفهم . وزّعت بينهم كلّ ما أملك لتلبية ما يحتاجون . رأيت كيف أنّ امرأتي وأولادي بذلوا قصارى جهدهم، وهم ينصبون خياماً في الحديقة، للتخفيف من معاناة تيار اللاجئين القادمين الجدد . رأيت يهوداً مؤمنين، كيف لجأوا عندنا هارين، رأيت مسيحيين، قدموا إلينا، الكلّ رُحّب بهم بحرارة . ومن بعض ممّن كان منهم قادراً على المساعدة، انضمّ إلينا، للتخفيف من معاناة اللاجئين الجدد . كان الإرهاق قد أخذ منّي، ومن أهل بيتي كلّ مأخذ، لكنّ نوراً خافتاً يافعاً بدا على وجوه أقربائي . عند ذلك سألتني الملاك : « هل أنت على استعداد أن تقسم كلّ ما تملك ، كما قسم الأنصار في الماضي، كلّ ما يملكون بينهم وبين المهاجرين ؟ هل صيامك اليوم قوي بما يكفي، أن تكون متهيئاً لرؤية ما كنت تريد أن تراه ؟ لم أقدر على تحريك لساني . سكتّ عن الإجابة . وهكذا يكون الخلاص ؟

ربّما كنت مخطئاً. ربّما غفلت عن شيء ما . الخلاص ينبغي أن يجلب جمالاً ، غنى ، رخاء للجميع . طلبت راجياً ، أن يريني الإمام المهديّ _عجلّ الله فرجه_ . فإذا بي أرى وجهاً مألوفاً لي . كان واقفاً عند قبر الإمام الرضا في مشهد ينظّفه ، مرتدياً ثوباً بسيطاً وقد خلع عمامته عن رأسه . لم يكن هذا الإمام الثاني عشر الذي كان ينبغي للملاك أن يصوره . لكنني أدركت الآن، ماذا أراد الملاك قوله لي ؛ نحن نرى الأشياء من خلال الأشياء . نرى الناس من خلال الناس ، والله من خلال خلقه . نحن متصلين كلّنا ببعضنا ، كلّ القلوب، كلّ الأرواح

من خلال روح الله فينا . القريب منا يدفعنا إلى الأمام خطوة . أحبّ قريبك ، فإنك سوف تفلح بخطوة الى الأمام، في طريق محبة الله . أحبّ روح الله في قلبك أنت، ولا تؤذيه بالفظائع التي تكون نفسك قادرة على فعلها. سلّم نفسك للروح التي فيك مرة أخرى طلبت أن يُسمح لي برؤية قلبي . هذه المرّة رأيت قبراً، على بلاطه إسمي و في القبر المجاور رقدت زوجتي الحبيبية. أين هو قلبي من كلّ ما أرى ؟

وفي محاولة أخيرة : " أرجوك ارسم لي وطني " حديقة رائعة الجمال من كلّ أنواع الزرع البهيج بانّت أمام ناظري . كلّ هؤلاء النّاس الذين كنت قد رأيتهم من قبل كانوا بداخلها. كانت امرأتي تبدو أجمل من أي وقت مضى، مع أنّها كانت قد أهدتني وافرًا من الجمال في عالم الدنيا . كانوا جميعاً سعداء ، يشعّون حباً . وفي البعيد، بل في القريب رأيت بيتاً من شدّة نوره قد غُشيت معالمه، لكن بداخله أناس رأيتهم من قبل . النبي ، حديجة ، فاطمة ، الإمام علي ، والعديد من النورانيين تغمرهم روح السعادة وتشعّ منهم أنوار المحبة . نور على نور يعمّ السّاحة بأكملها . جمال لم أكن قد رأيت في حياتي من قبل . أمسكت يد زوجتي وركضت معها مغموراً بالفرح مخترقاً النور

رويداً شعرت بعودة حواسي الدنيوية إليّ . تراجع الملاك عائداً إلى الجهة التي أقبل منها . لم أعد جالساً متربّعاً ، بل وجدت نفسي في وضع السجود . الجبهة على الأرض ، التي كنت قد خلّقت منها وإليها سأعود . كان قلبي قد امتلأ دفناً . فقدت إحساسي بالجوع . كنت وحدي في الغرفة مجدداً . تذكّرت المشهد ، عندما كانت الغرفة مليئة باللّاجئين

هل كنتُ متهيّئاً لذلك ؟ هل كان صومي، لأزكي نفسي، حتّى أكون مستعداً لذلك أو أن المخلّص كان قد انتظر لأنّي لم أكن متهيّئاً ؟. صدح صوت المؤذّن الجميل بالأذان اجتمعت العائلة لإقامة صلاة المغرب جماعةً . حان الوقت أن نفطر، اليوم على الأقلّ . لكننا مقبلون على ليلة القدر ، ليلة هي خير من آلاف الشهور، تنزل الملائكة فيها، وتنشر السلام، سلامٌ هي حتّى مطلع الفجر . وماذا جرى بعد ؟
طلع فجر الحب . دعونا لأجل ذلك نصوم .

